هذه الحرب الاّ لتحرير الامم الضعيفة وتحكيمها في شؤونها واعطائها الحكم الذاتي»، كما ظنت مذكرة وجهتها الجمعية الاسلامية ـ المسيحية في يافا، في أوائل ١٩١٨، الى الجنرال اللنبي، قائد القوات البريطانية في فلسطين[١٢]. وقد اعتقد المعنيون بالامر من اهل فلسطين، كما اعتقد نظراؤهم العرب الآخرون، بـ «ان حكومة بريطانيا هي أفضل حكومة تنظر في عمران بلدنا وترقيتها» كما قالت ذلك، بوضوح، عريضة وجهتها الجمعية ذاتها الى الجنرال البريطاني واطسون، الحاكم العام للبلاد، في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩[١٣].

رد الفعل على فصل فلسطين عن سوريا

الصدمة الاولى التي اصابت الآمال العربية، فزرعت بذور الشك إزاء بريطانيا، تمثلت في تخلي بريطانيا وحليفها فرنسا عن دعم قيام دولة عربية موحدة في الاقاليم التي تفاوض الشريف حسين وسير مكماهون بشأنها. ثم جاءت الصدمة الثانية حين راحت تتضح الآثار المترتبة على اتفاق الدولتين الامبرياليتين على اقتسام النفوذ في هذه الاقاليم وتوزيع الجزء الاكبر بينهما كممتلكات استعمارية . اما الصدمة الاخرى، التي اصابت، أشد ما اصابت، عرب فلسطين، فقد نجمت عن تبني بريطانيا لمشروع اقامة «وطن قومي يهودي» في البلاد، وما استتبع هذا التبني من تسهيلات قدمتها السلطات البريطانية الى النشاط الصهيوني متعدد الوجوه، وخصوصاً منها تلك المتعلقة بالهجرة اليهودية، وبانتقال الاراضي. واذا كان انشغال الرأي العام بالواقع الجديد، الذي جابهت فيه فلسطين مصيراً منفصلاً عن البلدان الاخرى، قد قلل، بمضي السنين، دون أن يلغي، تأثير غياب الوحدة العربية، فإن تفاقم الخطر الصهيوني كان من شأنه أن يزيد اليقظة ازاء المسائل المتعلقة به، خصوصاً ازاء المسألتين اللتين ذكرناهما، وهما الهجرة اليهودية وانتقال الاراضي.

بتأثير هذه الصدمات، تطرقت عريضة الجمعية الاسلامية ـ المسيحية في يافا، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩، فذكرت مخاطر الهجرة اليهودية، ثم اضافت ان الاعجب منها «ان فلسطين المسكينة التعسة المنكودة الحظ صارت أُلعوبة بيد السياسيين تتناولها كما شاءت اهواؤهم»، وهؤلاء «لم يكتفوا بتصريحاتهم بوجوب اعطاء فلسطين لليهود، بل جعلوا يقترحون اقتراحات تبرهن لنا على أن الشعب العربي الموجود في فلسطين لا يأتي عليه نصف قرن وهو في عالم الوجود»[١٤]. والاقتراحات التي تحمل هذه الخطورة كلها هي، وفق العريضة، اقتراحات «فصل فلسطين عن سوريا، وجعلها وحدة سياسية منفصلة... تحت اشراف انجلترا»[١٥]. وقد شكل هذان الموضوعان، فصل فلسطين عن سوريا والسياسة البريطانية المؤيدة لوعد بلفور، أولى نقاط الاحتكاك بين الحركة الوطنية الفلسطينية والوجود البريطاني، فضلاً عن انهما عكرا صفو الاماني العربية المتصلة بالتعاون مع بريطانيا وبالحصول على معونتها ودعمها لتطوير البلاد.

ولّما عرف ممثلو الرأي العام الفلسطيني، على وجه اليقين، أن سوريا ستتجزأ، وأن فلسطين ستوضع تحت الانتداب البريطاني بقرار من مؤتمر السلم العام، كان رد فعلهم الاول والاولي، المعبّر عن عمق الاحساس بالفجيعة، رفض ذلك، جملة وتفصيلاً. وقد وجهت الجمعيات الاسلامية ـ المسيحية كلها، في شباط (فبراير) ١٩٢٠، احتجاجاً الى مؤتمر السلم العام على القرار الصادر عن المؤتمر بخصوص مستقبل فلسطين، فأعلنت أنها ترفض هذا القرار، رفضاً باتاً، لما فيه من الاجحاف بحقوق العرب المقدسة، وأظهرت، في مقابل ذلك، «أننا لا نتخلى عن مطالبنا المنحصرة في استقلال سوريا، من طوروس الى رفح، ونرفض الهجرة الصهيونية، رفضاً باتاً، وعدم فصل فلسطين